التلفون العمومي

ناجي ظاهر*

لَفَتَ نظرَنا، نحن روّادَ مقهى «الصداقة» في الناصرة، أنّ هناك شابًا واقفًا قرب التلفون العمومي، على الرصيف المحاذي، يتحدّث بكثرة.

وتكرّر الموقفُ في اليوم التالي، فَرُحْنا نتساءل: مع مَنْ يتكلم يا ترى؟ وأية مكالمة في العالم تستأهل أن يقضي المتحدِّثُ فيها ساعاتٍ وساعات؟ ومن أين يأتي بهذه المنظومات الكلامية التي تستغرق كلّ هذا الوقت؟

وزاد في تساؤلنا أنّ الشاب جاء في اليوم الثالث وواصَلَ كلامَه، وطال حديثُه. حتى إنّ أحد أفراد الشلة ذهب لإجراء معاملة في البلدة المجاورة، وعاد، والشاب ما زال يواصل كلامَه.

في اليوم الرابع نسينا كلَّ ما يحيط بنا، ووَضَعْنا رؤوسَنا في رأس ذلك الشاب. نسينا كلامَ الأدب والفن والثقافة والعلم نسينا أننا أدباء ورجالُ فنٍّ وثقافةٍ وعلم، ولم نعد نفكّر إلاّ في ذلك الشاب. ولم يكن أمامنا، من أجلِ أن نفهم ما يدور حولنا، سوى أن نراقبه وابتدأنا المراقبة.

لاحظْنا في اليوم الرابع أنّ الشاب بدأ بالمكالمة هادئًا مثلَ النسيم العليل، ثم أخذ بالثوران رويدًا رويدًا، وحاول أن يَضْبط نفسَه، فأخذ بالضغط على كلِّ ما في وجهه، فارتخى شيئًا فشيئًا، إلى أن عاد إلى عهده السابق. ولَفَتَ نظرَنا أنّ الشاب أتى إلى التلفون فرحًا وغادر فرحًا

وصار الشاب في اليوم الخامس قصتَّنا التي تدور أحاديثُنا كلُّها حولها فحين تأخّر قليلاً، تساءلنا. أين تراه ذَهَب؟ وماذا تراه يفعل؟ وهل ذهب إليها، واستغنى عن التلفون؟

غير أنّ الشاب سرعان ما أتى ملهوفًا إلى التلفون فاقترب منه كما يقترب العاشقُ من معشوقته، وكأنّه يريد أن يعتذر لها عن تأخُّره، وأن يبرِّر لها سببَ غيابه. ولم يكن يَظْهر عليه أنّه يتوقع منها أن تصدّه، فاقترب واثقًا من نفسه.

وانتظرنا أن يأتي في اليوم الخامس، غير أنّه لم يأت لم نعرف ماذا نفعل؛ فقد اعتَدْنا على حضوره. أخذنا نضرب أخماسًا بأسداس وتفتّقت قريحةُ أحد أفراد شلّتنا بأن يقوم هو بالدور، فأعجبتْنا فكرتُه، وشجّعناه عليها، لأنّها عبّرتْ عمّا بداخلنا. فما كان من صاحب الاقتراح إلاّ أن توجّه إلى حيث التلفون واقترب منه، بالضبط مثلما يفعل ذلك الشاب ولاحظنا أنّه يَفْرك يديْه وهو يقترب من التلفون، وابتسم مثلما يفعل العشّاق، فدقّت قلوبُنا. إلاّ أنّه توقف فجأةً، فسألناه لماذا لم يواصل تأديةَ ما اقترحه، وأخذنا نَمْتدح أداءه. فأخبرنا أنّه شعر حقًا بمثلِ ما يَشْعر به العشّاق حين دنا من التلفون، إلاّ أنّه حين تناول السمّاعة لم يَعْثر على الكلمات.. ولم يدرِ ما يفعل

أطلقنا ضحكات مترددة، وأخذنا نفكّر بالشاب الأول.

ولم ينقذْنا من أفكارنا سوى مجيئه في اليوم السادس. كان الانفعالُ باديًا عليه، وبدأتْ عضلاتُ وجهه تتقلص وتتمدّد كلّما اقترب من التلفون.

توقّفتْ قلوبُنا عن النبض، منتظرةً ما سيفعله. كان من الواضح أنّها مكالمته الأخيرة، لأنّه لم يبدأْها بالفرح، ولم يُنْهِها بالفرح، وكانت الدموعُ تملأ عينيه ثم راحت تسيل على خديه انسلّ الشاب مثلما ينسلّ الخيالُ، فأدركنا أنّ كلّ شيء انتهى ومنذ ذلك اليوم ونحن نرسل نظراتِنا من مقهى «الصداقة» في الناصرة، وننظر باتجاه التلفون في الرصيف المحاذي للمقهى، ونرجو أن يعود ذاك الشاب الذي ذهب . فلعلّه يُوقِظ الحلمَ الذي نام في صدورنا، نحن أبناءَ الأربعينات.

الناصرة

---

* ـ كاتب فلسطيني